مُقـــدمة

للأستاذ الكبير عباس محمود العقاد

كان « على الجارم » زينة المجالس كما كان يقال فى وصف الظرفاء من أدباء الحضارتين العباسية والأندلسية .

تجلس إليه فتسمع ما شئت من نادرة أدبية أو ملحة اجتماعية أو شاهد من شواهد اللغة أو نكتة من نكت الفكاهة ، ولا تدرى كلما تهيأ للكلام : ماذا أنت سامع بعد هنيهة . . . فقد تترقب النكتة فتسمع الفائدة ، وقد تسأل عن الشاهد فتسمع « القافية » التى لا تعذر كما يقول أبناء البلد كلما عرضت المناسبة « لقفشة » من القفشات لا تهمل فى سياقها ، ولكنك واثق فى النهاية أنك خرجت بفصل ممتع من طراز فصول العقد أو الكامل أو نفح الطيب ، وأنك لو اخترت الحديث واقترحته لما ظفرت بخير مما استوفيته عفو الخاطر بغير سؤال .

كنا فى جلسة بعض اللجان بمجمع اللغة فقلت له جواباً على تحية من تحياته : أجز يا أستاذ :

علىٌّ « بيكٌ » الجـــارمْ

أديب ، شـــاعر ، عالم

فما تردد أن قال على عادته من سرعة البديهة : إنها إجازة لا تجوز « لعلىٌّ بيكٌ » . . . . قلت : ولـكنها تجب علينا إذا أعجبتك القافية !

والبيت توحيه الفـكاهة كما هو ظاهر ، ولـكنه صميم الجد إذا أردنا أن نجمل الرأى فى مقام النقد والتقدير للزميل الفقيد ، فهو أديب وافر المحصول من زاد الأدب أو زاد الرواية الأدبية من قديمها إلى حديثها ومن مبتكرها إلى منقولها ، وهو عالم باللغة ، وعالم مع اللغة بفنون التربية وفروعها ، وهو الشاعر الذى زوده الأدب والعلم بأسباب الإجادة والصحة ، فـكان شعره زاداً لطالب البيان فى عصره ومثالاً صالحاً للثقافة التى أسهم فيها بأدبه وعلمه .

وقد تعود نقادنا عند الكلام على جيل الجارم والجيل الذى تقدمه أن يقرنوا كل شاعر حديث بشاعر مجيد ممن تقدموه ولاح للناقد أنه قدوة للناشئين من بعده ، ولكننا لا نحسب أننا نقيم الجارم فى مقامه إذا قلنا إنه شبيه بالبارودى أو بصبرى أو بشوقى أو بحافظ أو بشعراء هذه الطبقة السابقين لجيله . فإن للجارم مدرسة خاصة من مدارس الشعر الحديث تقوم على قواعد غير تلك القواعد كلها عند إجمالها أو إفرادها وتخصيصها باسم كل شاعر معدود فى أولئك الشعراء .

إن الجارم ركن من أركان مدرسة شعرية تستحق الآن أن تعرف بملامحها وأن تستقل بعنوانها ، فلا تلتبس بمدرسة أخرى تنسب إلى علم من أعلام الشعر المخضرمين بين القرن التاسع عشر والقرن العشرين .

إنها مدرسة يجوز لنا أن نسميها بمدرسة « دار العلوم » ونعجب لأنها لم تتميز بهذه الميزة الواضحة وهى أدل عليها من كل جامعة أخرى تفرّقها ولا تقارب بين أوصالها .

فإذا سمينا أركان هذه المدرسة الثلاثة ، وهم : حفنى ناصف ومحمد عبد المطلب وعلى الجارم بترتيب السن أو الجيل ، فمن اليسير جداً أن نلمس وجوه الشبه بين كل منهم وصاحبيه وإن لم يكن شبهاً من أشباه القوالب المصنوعة يمنع الفوارق الخاصة أو يخفى دلائل الاستقلال بطابع الشخصية المستقلة .

ومنهم عبد المطلب — مثلاً — أقرب إلى البداوة التى نشأ بين أحضانها وحرص على ألوانها وسماتها ، ولكن من ذا الذى يعرض قصائده عرضاً ويستطيع أن يجد له زميلاً أقرب إليه من ناصف فى لباقته أو الجارم فى رقته ؟ من ذا الذى يقارب بينه وبين حافظ أو محرم ولا يشعر بالغرابة بينهم ؟ ومن ذا الذى يقارب بينه وبين ناصف أو الجارم ولا يشعر بملامح « الأسرة » تقرنه بأخيه وإن اختلفا كاختلاف الغرباء فى بعض الشيات والأزياء .

نكاد نقول إن الشعر قد انقسم بعد نشأة أدباء دار العلوم إلى مدرستين : مدرسة «الأفندية» والمدرسة المعممة أو الدرعمية .

ونكاد نقول إن الأديب الدرعمى سيقول ولو بدل زيه كما قال الجارم بين جده الباسم وفكاهته الصادقة :

لبست الآن قبعة بعيدا
عن الأوطان ، معتاد الشجون
فإن هى غيرت شكلى فإنى
« متى أضع العمامة تعرفونى »

وهل هى ملامح « زى » بين العمامة أو الطربوش أو القبعة ؟ وهل هى ملامح « عنوان » بين الأزهرية والجامعية والدرعمية ؟ كلا . بل هى ملامح « أسرة » فكرية نفسية خلقتها « طبيعة الدراسة » التى انفردت بها « دار العلوم » ولم تشبهها دراسة من قبيلها فى لغتنا ولا فى لغة أخرى من لغات الثقافة المعروفة لدينا .

فالدرعمى « لغوى عربى سلفى عصرى » ولكن على منهج فريد فى بابه بين مناهج المعاهد السلفية والمدارس الإفرنجية ، وبين مناهج المحافظة والتجديد ، ومناهج الابتداع والتقليد .

ولا يسعك وأنت تقرأ قصيدة لشاعر من أركان المدرسة الدرعمية أن تحجب فكرة « اللغة » عن خاطرك وأن تنسى أن قائل هذا الشعر يثبت على القديم وإن أخذ بنصيبه من الجديد وحرص على انتسابه إليه حرصه على انتسابه إلى التراث القديم .

إن قافية « معتاد الشجون » فى بيت الجارم قد تكون من ضرورات القوافى التى يقبلها الشعراء غير مختارين ، ولكن هل يسعك وأنت تتوقف لديها أن تنسى أن لابس القبعة الذى قالها قد وضعها موضعها فى دار الغربة ؟ وأن الشجون المعتادة ترد هنا على البال ولا ترد كلمة أخرى بديلاً منها ؟

وإن قراءة « الدرعمى » هى التى جذبت هذه الكلمة من محفوظات الأدب العربى ليقولها غريب تعتاده شجون الغربة وتذكره بها القبعة وذكرى العمامة ؟

واقرأ هنا وهناك ما شئت من قصائد الصفحات التالية ، فإنك ترى التشطير وبيت التخلص ومحسنات الأشياء والنظائر ،

ولكنك لا تلبث أن ترى القيعة إلى جانب العمامة ، وأن ترى « الشجون المعتادة » بين الوطن الثقافى الأصيل والوطن الثقافى المستحدث ، وهما حيث كانا يتلاقيان « و بينهما برزخ لا يبغيان » .

على أن الطابع المستقل من « الشخصية الجارمية » يبدو على كل لمحة « درعمية » تصادفها بمعانيها أو ألفاظها فى قصائد هذا الديوان .

إننا نرى « عليًّا » برقته ودعابته حين نسمع حنينه إلى الشباب فى قوله :

هات عهد الشباب إن غاص فى الما
ء ، وإن غاب فى السماء فهاته
ما أرانى من غيره غير ثوب
ضم أردانه على عـــلّاته
رب شيخ فى عالم الطب حى
ويـــراه الزمان من أمواته

و « علىّ » برقته ودعابته هو الذى يقول فى الشيخ المتصابى:

لنا شيخ تولى أطيبـــاه
يهيم بحب ربات القـــدود
يغازل إذ يغازل من قيـام
وإن صـــلى يصلى من قعود

والظريف الحكيم هو الذى يقول فى خطابه للمكروب :

لست كالواو ، أنت كالمتجل الحصا
د ، إن أحسنوا لك التمثيـــلا
ما غلبت النفوس بالعزم لكنْ
هكذا يغلب الكثير القليـــلا
رب طفـــل تركت من غير ثدى
يضرب الأرض ضجـــة وعويلا
وفتاة طرقتها ليـــلة العر
س ، وقبل الحليل كنت الحليلا

كحلوا جفنهـــا فكحلت فيها
كل جفن أسى وسهـــداً طويلا

وهو الذى يحيى الإذاعة فيقول :

ونبهت وسنانَ جفنِ الصبا
ح ، بآى من الكلم المنزل

وغنيت حتى تعزى الحـــز
ين وقر الشجى وهام الخلى

وكم قد هزلت لتشفَى النفو
س فكان من الجد أن تهزلى

وهو القائل مفتخراً بالعرب :

صعدوا للعـلا بريش نسور
ومضوا للردى بعزم أســـود

أينما ركزوا الرماح ترى العد
ل مقيماً فى ظلـــه الممدود

وترى العلم يلتقى بهدى الد

ين على منهج سوى سديد

فسحوا صدرهم لحكمة يونا

ن وآداب فارس والهنـــود

تلك آثارهم شهوداً على المجـ

ـد ، وما هم بحاجة لشهود

وهو القائل مخاطباً للعربية :

أنت علمتنى البيـــان فمالى

كلما لحت حار فيك بيانى

لغة الفن أنت والسحر والشعر

ونور الحجا ووحى الجنـــان

نعم . ويعود بنا المقام — إن لم نعد نحن إليه — لنقول إن « الأديب الشاعر العالم » يستوى على منبره حين يزجى هذه

التحية إلى اللغة العربية ، وإنها لتحييه بأحسن منها كلما ذكرت له مأثرته ومآثر أصحابه فى إحياء بيانها و إطلاق لسانها وبقائها على الأزمان نوراً للحجى ووحياً للجنان .

عباس محمود العقاد